المصدر: النهار
التاريخ : ١٣ يـوليـو ٢٠٠٥

ضحايا الفراغ

بقلم سمير عطاالله

"لا شبيه لبيروت. انها منتجع صنع من اجل المتأملين والبائسين وجرحى الوجود. ويبدو لي ان في امكان المرء ان يعيش سعيدا هنا دون ان يفعل شيئا سوى تأمل البحر والجبل".

ماكسيم دو كامب

كانت القضية، دائما، هي من يحاول احراق الجبل ومحاصرة البحر. فهناءات لبنان لا تطول. وكلما تأمل المرء في جماله مثل المسيو دو كامب، كلما احزنه سوء حظه. أليس كثيرا على بلد في حجم قبضة السكر، كل هذه الحروب وهذه الصراعات ومواسم الجرائم؟ كأنما الحرية الوحيدة الباقية هي حرية القتل، كما في مسلسل غامض لا يترك فيه القاتل اثرا ولا رسالة ولا توقيعا. فقط يكتفي بتدبير الجريمة بهدوء، فتكتمل احيانا، ويتدخل الحظ احيانا اخرى، كما فعل مع مروان حماده في بدء المسلسل ومع الياس المرّ امس.

هل يتنصت القاتل على حوارات لبنان، فعندما يرى ان اهله غارقون في الجدل السقيم والطائفية العقيمة والجهل بتداعيات المستقبل، يقرر ان يوجه ضربته وهم في غفل الا عن الحقائب والشهوات والمضي في تدمير القواسم الوطنية او تعزيز المكانة القومية؟ هل يدخل القاتل دائما من الباب المفتوح والجدار المثقوب والنافذة المخلّعة؟ الوطن يحترق والخلاف على مجموعة من عيدان الثقاب؟ البلد في المصير والناس في الحقيبة؟ الامة على الحافة ولبنان في الحصص والتسميات والتعميات؟ ألا يشعر احد بالخجل مما هو فيه ومما اصبحنا عليه؟ ألم يسأم المسؤولون من ارسال برقيات التعزية وتطيير الاستنكارات؟ لو أظهرت مسحة او غلالة من الجدية او من الكرامة الرسمية في محاولة اغتيال مروان حماده، هل كان المرتكب يجرؤ على الوصول الى الياس المرّ؟

في الفراغ الهائل تحدث زلازل كبرى. لان الفراغ حالة فيزيائية مدمرة، فيما يُظَنُ انها حالة عادية. والفراغ، دون ان يدري، اعتداء على مستقبل الدول واستنزاف لنموها وتطورها، وتبديد لسكينتها وامنها وحصانتها المستقبلية. وهو يسبب اوبئة عامة لا تُرى الا اذا جمعت معا في مربّع مأسوي واحد. كمثل كارثة الهجرة الوطنية. ومأساة البطالة. وتدهور مستوى المعيشة. وانحطاط الخطاب السياسي. وانعدام الثقة الوطنية. وغياب اهل الاحتكام. واطلاق الغرائز على بعضها البعض. وتشجيع الخلافات ونشرها. وخصوصا افساد القضاء وتسخيره لصغارات السياسيين وضمائرهم الواسعة.

الصدق وحده يبني الدول وينقذ الشعوب. لان الصدق هو الحق وهو الحقيقة. وهو الطريق الوحيد الى قلوب الناس. وفي نهاية المطاف هو الحَكَم الاخير. اما هذا التنقل فوق الاغصان والقفز من حال الى حال فسوف يبقي الصدع الوطني كبيرا. واما اصرار العماد عون على حقيبة العدل واعتبارها المدخل الاساسي للتغيير، فالمسألة ذات شقين: الاول، ان لا دول ولا شعوب ولا امم، اذا فسد القضاء وانهارت العدالة، وهذا ما حدث في لبنان . وقد قالت مادلين اولبرايت في بساطة متناهية ان رجال الاعمال الاميركيين لن يعودوا قبل عودة القضاء اللبناني. لكن المعني الاول في هذا الباب هو اللبنانيون. وهم الابرياء

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

او المرتكبون الذين رموا في السجون السيئة الصيت من دون محاكمة. على اننا جميعا نعرف ان المشكلة او المحنة الكبرى ليست في القضاة. كثيرون منهم اخيار وذوو ضمائر. المشكلة هي في ما فعله الانحطاط السياسي في القضاء، وفي تحويل العدالة من سيف فاصل بين الحق والظلم الى سيف ذي اتجاه واحد وميزان ذي كفة واحدة. وبعدما كان اللبناني يجد في القضاء ملاذه اصبح يخاف ان يحال عليه، لانه رأى انه اصبح خاضعا للاوامر لا للضمائر. وقد يجد وزير العدل العوني العتيد ان سبعة آلاف عوني اعتقلوا او اضطهدوا او عذّبوا او اهينوا من دون سبب قانوني واحد. ان اصلاح وزارة العدل يكون باصلاح كل الوزارات الاخرى ورفعها من أسن الفساد المعلن والموصوف. ويكون بوقف عملية التقاسم لخيرات البلد واموال الناس عبر تقاسم الحقائب المتبع على طريقة تقاسم "عدادين" المياه.

من المؤسف ان نعتقد ان الاصلاح يبدأ في وزارة العدل، وان يكن لا بد ان يبدأ في مكان ما. انه يبدأ في الاقتناع بان الخوة المفروضة على اصغر وزارة واصغر باب يجب ان تلغى قبل اصلاح وزارة القانون والاحكام والاعناق والرقاب. واذا كان زعيم "التيار الوطني" لا يريد ان يحاكم الذين زجوا الابرياء في السجون وارتكبوا اعمال التعذيب المنافية لكل عرف في الارض والذين اهانوا كرامات البشر والحقوا بها الشبهات وسمموا مناخ البلد ونشروا الخوف بين الاوادم، فلا معنى اطلاقا للعدل او لسواه.

سمير عطاالله

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية